جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

اثر الكوارث والزلازل على تربية الطفل من واقع التجربة اليمنية

الدكتور محمد سعيد فرح

الرياض

1409 هـ - 1989 م

أثر الكوارث والزلازل على تربية الطفل من واقع التجربة اليمنية

الدكتور محمد سعيد فرح(*)

في تمام الساعة ١٢,١٥ من ظهيرة يوم الاثنين ١٣ ديسمبر ١٩٨٢م حدثت هزة أرضية شديدة في محافظة ذمار(١) بالجمهورية العربية اليمنية، وقد استمرت هذه الهزة فترة ٤٠ ثانية، وكانت شدتها ٥,٨ بمقياس/ريختر، كما سجلت المئات من الهزات التالية للحدث خلال ٤٦ يوماً بعد الهزة الرئيسية، وقد أحدثت هذه الهزة الرئيسية دماراً شديداً في محافظة ذمار

(*) كلية الآداب. جامعة طنطا. جمهورية مصر العربية.

١ ـ محافظة ذمار التي كانت محور الزلزال، تبلغ مساحتها ٨,٨٧٠ كم٢ وتحتل المرتبة السادسة من حيث عدد السكان بين محافظات الجمهورية، ويبلغ عدد سكانها ٧٩٤,٢١٢ نسمة، ويقطن ٩٥٪ من أهلها الريف، بينما يعيش ٥٪ في الحضر، وتبلغ نسبة سكان ذمار ٩٪ من مجموع سكان الجمهورية، واذا كانت الاصابات قد وقعت كلها في الريف فذلك يرجع الى أن الطابع القروي هو المسيطر وأن له الغلبة على الطابع الحضري، فالريف اليمني يضم ٨٩٪ من مجموع سكان الجمهورية، يعيشون في ٥٢,٦٨٣ قرية صغيرة، وتتكون هذه القرى من مساحات صغيرة متجمعة يكون كل عدد منها وحدة اجتماعية، وهذا العدد الكبير من القرى ظاهرة طبيعية في بلاد كاليمن التي تمزق الأودية كل جزء من أجزائها، وهذه التجمعات البشرية المشتتة سبب أساسي من أسباب تخلف المجتمع اليمني واعاقة جهود التنمية

ولم يكن هذا الزلزال حدثاً طارئاً في اليمن فتاريخ الزلازل في اليمن يبين أن حدوث الزلازل أمر دوري* فكل المناطق في اليمن معرضة للزلازل: فالتكوين الجيولوجي للأرض اليمنية يكشف أن أصلها بركاني، وأن مجموعاتها الجبلية تتخللها أودية ضيقة كثيرة التعرج والالتواء، فتضاريس اليمن عبارة عن هضبة شاسعة قوامها مقذوفات بركانية تفرشها صخور بركانية مكونة في الغالب من البازلت تكونت هذه الصخور من براكين قديمة، أصيبت بها البلاد في الزمن الجيولوجي الثالث (بركانيات اليمن) الى جانب صخور بركانية بلورية[1] حدثت في الزمن الجيولوجي الرابع (البراكين الرباعية).

واذا كان جيل الصغار يجهل آثار الزلازل والبراكين في اليمن، فإن جيل الكبار والشيوخ يتذكر الزلزال الذي حدث عام ١٩٧٣م في صعده والزلزال الذي حدث في الحديدة* في أواخر الخمسينيات ويروي الشيوخ ذكرياتهم عن زلزالين كبيرين أولهما منذ أكثر من ثلاثين عاماً والآخر حدث منذ سبعين عاماً. واذا تناسى الناس تاريخ الزلازل الحديثة والمعاصرة التي أصيبت بها اليمن فان أول انهيار حدث لسد مأرب عام ٧٤٢م، وقع بسبب هزة أرضية

---

* أنظر الخريطة التي توضح أحداث الزلازل في الجمهورية العربية اليمنية

١ - محمد سعيد فرح. زلزال ذمار الواقع الأليم والدرس المستفاد. مجلة معين. مؤسسة سبأ العدد ٣٨ صنعاء ١/١/١٩٨٣م.

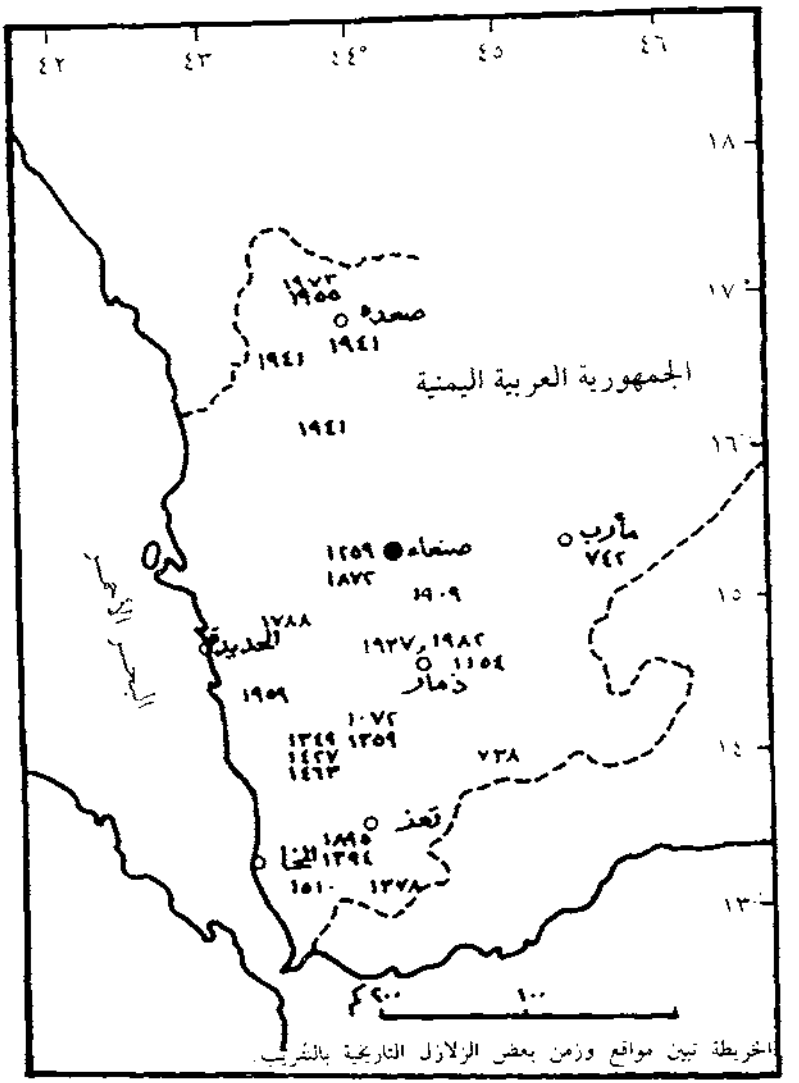

خريطة توضح بعض أحداث الزلازل
في الجمهورية العربية اليمنية

١٥

وقد خلف هذا الانهيار وراءه خسائر مادية وآثاراً اجتماعية واقتصادية جسيمة أدت باليمن الى عصور التدهور، وسنوات عجاف طال أمدها بعد عصور ازدهار حضارة[1]

وقبل أن نتقدم ونعرض للآثار الاجتماعية لزلزال ذمار على الأطفال خاصة، علينا أن نطرح السؤال الآتي ونجيب عليه، والسؤال هو: هل يحق لعالم الاجتماع أن يتصدى لدراسة الكوارث والنكبات التي تهدد البشرية ابتداء من الفيضانات وحرائق الغابات والحرائق الكبيرة المدمرة ـ وخاصة التي تشب في الريف والمناطق الصناعية ـ والزلازل وتلوث البيئة وانتهاء بالانفجارات التي تحدث في المفاعلات الذرية والآثار السلبية للتكنولوجيا النووية؟ أي هل يحق لعالم الاجتماع أن يدرس آثار الزلازل وآثار حادث مثل حادث انفجار المفاعل في شيرنوبل والذي اتخذ صورة سحب من الاشعاعات الذرية تحركت حسب حركة الريح العشوائية؟ يهمنا في البداية أن نوضح أننا لا نهتم بدراسة الكوارث والنوازل والمصائب التي تصيب الانسان باعتبارها ظواهر طبيعية، ومن ثم فنحن لا ندرس شدة الزلزال ولا نهتم بدراسة الفيوض البركانية ولا ندرس ما اذا كانت أرض اليمن نشطة بركانياً أم لا، ولا ندرس الانفجارات التي تقع في المفاعلات الذرية باعتبارها صورة مصغرة للجحيم الذي ستعاني منه البشرية، بل نهتم ـ كعلماء الاجتماع الذين يعطون كل

---

١ ـ محمد سعيد فرح. المرجع السابق.

الاهتمام للانسان وعلاقاته الاجتماعية وللتغير الذي يطرأ على المجتمعات الانسانية ـ بآثار هذا الزلزال على الانسان اليمني عامة والأطفال خاصة، وما طرأ على المناطق المنكوبة من تغيرات اجتماعية قد تؤثر على الانسان عامة والأطفال خاصة

والحقيقة أن الاهتمام بدراسة الكوارث والمصائب التي تهدد حياة البشر وعلاقاتهم الاجتماعية والتي تعوق النظم الاجتماعية من آداء وظائفها موضوع جديد في الدراسات السلوكية، فلم يعد علماء الاجتماع يهتمون بدراسة الجوانب الايجابية في المجتمع الانساني فقط بل تحولوا الى دراسة كل ما يهدد البشرية في صميم وجودها. وعند دراسة الكوارث أولى علماء الاجتماع في العقدين الأخيرين المواقف التي تكشف عن طبيعة العلاقات السائدة بين المتفاعلين أثناء المحنة اهتماماً كبيراً، فهم يدرسون السلوك الانساني في وقت الشدة وما اذا كان هذا السلوك عشوائياً أم محصلة التفاعل بين النسق الاجتماعي والثقافة ونسق الشخصية، وهم يدرسون السلوك الناتج عن المعاناة والفزع، كما يدرسون عمليات اتخاذ القرارات عند وقوع الأزمات والنكبات وأخيراً يدرسون مدى الشعور بصراع الأدوار في أوقات الشدة والكوارث.

ورغم أن الاهتمام بالكوارث قديم قدم الانسان فوق هذا الكوكب، فان الاهتمام بدراسة الكوارث مجال جديد اقتحمه علم الاجتماع منذ سنة ١٩٦٣م عندما أنشيء مركز دراسة الكوارث في جامعة أوهيو والهدف من انشاء مثل هذا المركز القاء الضوء على

مشكلات كثيرة في مجال العلوم السلوكية، سواء على المستوى الشخصي أو المستوى الجمعي. اذ تتيح دراسة الكوارث الفرصة لفهم ردود أفعال الناس في مواقف الأزمات، كما أن الأزمات والنكبات تترتب عليها دائماً تغيرات اجتماعية، والحقيقة أن أغلب الدراسات التي اهتمت بدراسة الآثار الاجتماعية المترتبة على الكوارث، صدرت عن علماء الاجتماع في الولايات المتحدة وأوروبا، فقد أعطى بعض علماء الاجتماع في القارتين اهتماماً كبيراً لدراسة ردود أفعال الناس ازاء الكوارث والقيام بدراسات مقارنة بين ردود الأفعال الانسانية في البلدان والثقافات المختلفة لمعرفة أسباب تباين هذه الأفعال من ثقافة الى أخرى، وهل يرجع هذا الاختلاف في ردود الأفعال في الثقافات المختلفة الى اتجاهات الناس نحو الطبيعة وعلاقتهم بالكون، أي هل يرجع التباين في ردود الأفعال الى إيمان الناس بأن الطبيعة تسيطر عليهم وأنه يتعين على الناس الخضوع للطبيعة، وهذا يعني إيمان الناس بالتواكل، واتسام سلوكهم بالجبرية والاستسلام للطبيعة، وتقبل ما يحدث كأمر طبيعي لا يمكن الفرار منه، فمثل هذا الانسان المؤمن بقوة الطبيعة يعترف بعجزه أمام القوى الطبيعية كالعواصف والأمطار والزلازل فهو عبد الظروف الطبيعية، أم يرجع هذا الاختلاف في ردود الأفعال الى امكانية السيطرة على العالم وتفوق الانسان وتغلبه عليها واخضاع امكانات الطبيعة لخدمة الانسان.

وعالم الاجتماع عندما يتصدى لدراسة الكوارث والنكبات والأزمات فهو يهتم بها باعتبارها أحداثاً مملوءة بالنوازل والمصائب

الشديدة[1]، فهي تصور وتجسم المأساة على المستوى الفردي ابتداء من فقد الأهل ومروراً بالابتلاء بالخوف والجوع وانتهاء الى نقص في الأموال والموارد وتجسم الكوارث على المستوى الجمعي الوجود المستمر لخطر داهم يهدد استقرار النسق الاجتماعي، وقد يؤدي هذا الخطر الى تفكك أو انحلال هذا النسق الاجتماعي، كما تبين الأزمات والنكبات مدى قدرة المجتمع على امتصاص النكبة والكارثة واعادة التوازن والاستقرار الاجتماعيين، ومدى قدرة النسق الاجتماعي على الاستمرار في آداء وظائفه أو تغيير بعض وظائفه وأجزائه، وتكشف لنا مواقف الأزمات والكوارث مدى ترهل واضطراب أو صلابة النسق الاجتماعي ومدى قدرة البناء الاجتماعي على تحمل آثار الأزمة وما يطرأ عليه من التغيرات بعد مواجهة الكارثة

كما تعد دراسة الكوارث والنكبات مجالا هاماً لدراسة بعض العمليات الاجتماعية في أوقات الشدة فهذه الكوارث تتيح لنا فرصة فريدة لا تعوض لملاحظة ومشاهدة ردود الأفعال الانسانية في مواقف اجتماعية مشحونة بضغوط كثيرة، كما تعطي لنا الفرصة لدراسة ردود الأفعال على المستوى الفردي والجمعي في مواقف مشحونة بالخوف والقلق، وتعرض أمامنا أوضاعاً يصاب فيها الناس بالصدمات الفيزيقية والأمراض النفسية الجسمية، كما تقدم لنا مناسبة لمعرفة تصرفات الأفراد الذين يفقدون عائلهم أو أحباءهم أو أقاربهم أو

1 Dynes, Russel: Disaster as a Social Field.

ثرواتهم، كما تفجر الكوارث ضغوطاً جمعية تنعكس مباشرة أو غير مباشرة على العائلات التي نكبت والتنظيمات الاجتماعية وأجهزة الدولة التي تصنع أو تنفذ القرارات، كما قد تؤدي الكوارث الى انحلال أو تفكك التنظيمات الاجتماعية، كما ينظر الى الكوارث بأنواعها باعتبارها سبباً أساسياً وراء تدمير بعض الأنظمة والأنساق الاجتماعية المستقرة، تلك الأنظمة الضرورية ليمارس الشخص حياته الانسانية وليشبع حاجاته الأساسية والثانوية

كما تكون الأزمات والكوارث معملا طبيعياً لعالم الاجتماع يختبر من خلاله بعض الفروض التي تتعلق بكيفية أداء السلوك الانساني في أوقات المحن وطبيعة العلاقات بين التنظيمات الاجتماعية في أوقات الأزمات وكل ذلك في مواقف طبيعية مملوءة بالضغوط والتوترات والانفعالات الحقيقية، وتخلو من الافتعال والتصنع، كما تتيح لنا الكوارث الفرصة لدراسة طبيعة وسرعة الاستجابة لكل من أفراد الشعب والقيادات السياسية والشعبية، ومدى التوافق مع الموقف والرغبة في التغلب عليه، كما تقدم لنا الأزمات مناسبة هامة لفهم أنماط التفكير السائدة في أوقات النكبات ومدى الرغبة في تحقيق سياسة الاكتفاء الذاتي لمواجهة الكارثة أو الاعتماد على الغير أوالتعاون معهم للتغلب على النكبة عند اعادة بناء المجتمع المنكوب

ويعتمد عالم الاجتماع على الملاحظة بالمشاركة في المواقف الاجتماعية العديدة في شرح الأزمات أو تسجيل المقابلات على

مستويات مختلفة بعد وقوع الكارثة لفهم استجابات الناس في مواقف متباينة، سواء بعد الكارثة مباشرة أو بعد هدوء العاصفة، وكذلك ملاحظة ما يطرأ من تغيرات على العلاقات الاجتماعية والتنظيمات الاجتماعية بعد الكارثة، كما يمكن أن يعتمد على الاحصاءات لمعرفة آثار النكبة، وما يطرأ على المجتمع من تغيرات بعد النكبة في مرحلة اعادة البناء.

واذا كانت دراسة النكبات والمصائب قد حظيت باهتمام علماء الاجتماع في الغرب فانه يتعين على علماء الاجتماع في دول العالم الثالث عامة والبلدان العربية خاصة دراسة الآثار الاجتماعية للكوارث والنكبات، فالكثير من هذه البلدان بدأت تتعرض للكثير من الأزمات والنكبات ابتداء من الجفاف والتصحر والمجاعات والزلازل وانتهاء بتلوث البيئة وتزايد أحداث العنف، وتعبر هذه الأزمات عن ضغوط قوية يتعرض لها المواطنون في بلدان العالم العربي والعالم الثالث، وخاصة تلك البلدان التي تمتلك موارد اقتصادية محدودة أو اعداداً بشرية قليلة وتقف هذه الأزمات والكوارث عقبة أمام طموحات شعوب هذه البلدان وعائقاً أمام التزام الحكومات بوضع وتنفيذ برامج تنموية تحاول أن ترفع من مستوى الطاقة الانتاجية المنخفضة وتزيد من الدخل القومي أو تحقق برامج التنمية الاجتماعية ويتعدى تأثير هذه النكبات تدمير الموارد المحدودة الى الزام الحكومات بتحويل بعض الموارد المحدودة من مسارها الطبيعي

الى عملية اعادة بناء ما دمر وخرب وما يترتب على ذلك من بطء معدل الانجازات التنموية

ومن ثم فدراسة الآثار الاجتماعية للنكبات والكوارث تعد موضوعاً هاماً عند علماء الاجتماع ما دام محور اهتمام علماء الاجتماع هو الانسان وما دام التغير الاجتماعي يعد موضوعاً أساسياً من موضوعات علماء الاجتماع، فقد يرجع التغير الاجتماعي الى نشوب أزمات حادة أي قد تؤدي الأزمات الى الاسراع بعملية التغير، كما تؤدي الأزمات الى نمو وظهور أساليب اجتماعية أو فيزيقية جديدة، والى تكوين تنظيمات اجتماعية لمواجهة هذه الكوارث مثلما حدث في اليمن فقد تم انشاء مجلس أعلى لاعادة تعمير المناطق المتضررة من الزلزال يعتمد العمل فيه على التخطيط العلمي، كما أدى الوعي باضرار الزلزال الى تغير نمط المسكن كما دفعت الضرورة لمنع تكرار ما حدث الى الاهتمام بمقاييس جديدة في التعليم والصحة والثقافة والتدريب المهني.

والآن بعد أن أوضحنا أهمية تصدي علماء الاجتماع لدراسة النكبات والكوارث نعرض لآثار زلزال ذمار

لقد أحدث زلزال ذمار دماراً شديداً في مناطق مغرب عنس وعنسي وجهران وضوران والحدا[1]، يوضح ذلك الجدول الآتي:

---

١ الأعمار: الجمهورية العربية اليمنية. المجلس الأعلى لاعادة تعمير المناطق المتضررة من الزلزال.

المناطق	عنس	الحدا	جهران	صوران	مغرب عنس	جبل الشرق	الاجمالي
عدد المواقع	٢١١	٢١٧	٣٩	٣٣١	١٤٧	١٢٧	١٠٧٢
المنازل المهدمة	٤٦٢٩	١٣٤٩	٢٧٨٥	٤٧٠٧	٧٠٠	٥٢٨	١٤,٦٩٨
المنازل المشققة	١٠١٦٥	٣٨٥٦	٢١٧٠	٦٨٦٩	٢٤٨٢	١٩٤٥	٢٧٤٨٧

والقرى التي أضيرت أنواع فهناك فئة س القرى صارت كومة من الأنقاض ودمرت تدميراً شديداً، وهناك فئة ثانية من القرى انهارت وتهدمت بعض مساكنها وتعرضت لتدمير جزئي وتصدع البعض الآخر تصدعات رأسية من الداخل أو من الخارج، وهذه المساكن لم تعد صالحة للسكن ولذا هجرها سكانها وأصبحوا مثل سكان المساكن المتهدمة بلا مأوى وكانت هناك فئة ثالثة من القرى أصيبت بتشققات وتصدعات أرضية، وهناك قرى قليلة لم تصب بأذى ولكن أهلها مثل أهل القرى المتضررة من الزلزال أصيبوا بالهلع والجزع وكانوا يعيشون في خوف ورعب خشية أن يحل عليهم ما حل بالقرى الأخرى، وكان هناك حزن مكتوم على وجوه جميع سكان القرى وأحياناً ما ينفس عن هذا الحزن من خلال كلمات قليلة تعبر عما يختلج في القلب من مشاعر، فكان هناك س يشير الى اطلال منزله قائلا: «هذا ما جمعناه في سنوات الغربة، فقد ضاع البيت والسيارة واختلط المال بالتراب»، وفي موقف آخر شاهدنا صبياً يقف بصلابة بمفرده أمام منزل الأسرة الذي قوضت أركانه يبين لنا صعوبة دخول

المنزل لاخراج ما به س مال ومصوغات وأوراق هامة رغم انقاذ البشر

وقد أخبرنا الجيولوجيون يوم ذهبنا[1] لزيارة بعض المناطق المنكوبة ان محور التمزق بدأ من الشمال الى الجنوب، وقد ساعدت التمزقات الأرضية وسقوط الأحجار من فوق الجبال الى تهدم البيوت مما أدى الى تزايد الاصابات وكثرة عدد الموتى نسبياً وكان أغلب الموتى والمصابين من الأطفال والنساء والشيوخ.

فالشباب كان في أماكن العمل في المدن الكبرى أو مهاجراً في بلدان الغربة، وقد وضحت البيانات الرسمية وجود عدد س الخسائر المادية والبشرية وان هناك س فقد ما يملك من المال والمتاع والحيوان وكانت العين ترى بجانب المنازل المتهدمة السيارات والدراجات التي تهشمت نتيجة سقوط الأحجار وكنا نشاهد الأمتعة المنزلية وأجهزة التلفزيون والأواني والملابس التي قذف بها الزلزال خارج المنزل، كما شاهدنا آثار تهدم بعض آبار المياه.

وقد أدى سقوط الأحجار التي بنيت بها المنازل الى كثرة عدد الضحايا ولا تتوافر أية احصاءات دقيقة كل الدقة عن عدد الضحايا

---

١ ـ تم تكوين فريق من أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة صنعاء لزيارة المناطق المنكوبة يضم كلا من:

أ.د صلاح الشامي.

أ.د نبيل أو العلا.

أ.د عزت حجازي.

أ.د محمد سعيد فرح.

والمصابين لأن الشعب اليمني مثله مثل أغلب شعوب العالم الثالث يسرع في دفن موتاه ولا يخطر بذلك الجهات الرسمية، اذ ما أن يعثر على جثة تحت الأنقاض حتى تدفع داخل بطانية ويسرع بها لغسلها ثم يصلي عليها ثم يدفنها

ورغم التحفظ على دقة البيانات الرسمية، فان خسائر يوم الفاجعة الكبرى تبين اتساع الرقعة التي أصابها الزلزال، وتوضح البيانات التي سجلت حتى يناير ١٩٨٣م الخسائر الآتية[١]

عددالمصابين اصابات مختلفة ٣٨٠٠ شخص.

عدد الموتى ٢٥٠٠ نسمة

ولا يوجد أي تصنيف لجنس وأعمار هؤلاء فهناك من فقد الأب، وهناك من فقد الزوجة، والأم الثكلى التي فقدت الابن ولقد قلل من عدد الاصابات والضحايا أن الناس وقت الزلزال كانوا في الخارج اما في الحقول أو المدارس أو في المدن.

وتوضح البيانات المتاحة أن الخسائر المادية كانت على النحو الآتي:

عدد القرى المتضررة.	١٠٧٢ قرية.
عدد المنازل المهدمة	١٤,٦٩٨ منزلا
عدد المنازل المشققة	٢٧,٤٨٧ منزلا

---

١ الأعمار. الجمهورية العربية اليمنية المجلس الأعلى لاعادة تعمير المناطق المتضررة من الزلزال.

عدد المساجد.	٦٥١ مسجداً.
عدد مشاريع المياه المفقودة.	١٣١ مشروعاً
عدد المباني الحكومية المهدمة	١٩ مبنى.

وقد بينت الاحصاءات أن ٣٣٪ من المنازل المشققة لن تكون قابلة للاصلاح، وانها ستضاف الى الأعداد المهدمة ولذا فان الأرقام النهائية للخسائر تبين الآتي:

١ ـ أن عدد المنازل المهدمة ٢٥,٠٠٠ منزل.

٢ ـ أن عدد المنازل المشققة ١٧,٠٠٠ منزل.

٣ ـ أن عدد الذين بلا مسكن يبلغون ١٢٢,٥٠٠ نسمة[1].

ولقد أخذت الكارثة طابع المأساة، فهناك الموت والخراب والدمار وهناك الأم الثكلى والأرملة التي خسرت الزوج واليتيم والتيه في الخلاء بحثاً عن مأوى فور الحادث مباشرة.

تلك صورة مبسطة لما حدث يوم الاثنين المشئوم، عقب الزلزال مباشرة، ولكن الاستجابة الرسمية والشعبية في البداية كانت قوية وسريعة فبدأت عمليات الاغاثة الفورية التي ساهمت فيها كل القيادات والأجهزة وشارك فيها المواطنون بتلقائية، ولقد ساهمت أفرع القوات المسلحة في رفع الأنقاض ونقل الجرحى والبحث عن الموتى وقامت القوات الجوية بالدور الأكبر في نقل الجرحى والمصابين

---

١ ـ عدد الذين بلا مأوى يساوي متوسط أفراد الأسرة × عدد المساكن المهدمة =
٤,٩ × ٢٥,٠٠٠

الى مستشفيات العاصمة، وإيصال الغوث للمنكوبين، ونصب الخيام لايواء من أصبحوا بلا مأوى كما تعاونت قوات الأمن وطلبة الجامعات والمواطنون في حملة الانقاذ والبحث عن الجثث واخراج من كانوا على قيد الحياة من تحت الأنقاض، كما أسرع المواطنون الى التبرع بالدم وتبرع القادرون بالمال.

وكانت الاستجابة على المستوى الرسمي سريعة وسخرت الدولة كل الامكانات والأجهزة من أجل الاغاثة وصدر قرار بتشكيل مجلس أعلى لاعادة تعمير المناطق المتضررة وفق خطة محددة، وصدرت التوجيهات السياسية باعداد دراسات فنية وهندسية وجيولوجية لاعادة التعمير وضرورة التنسيق بين الأجهزة المعنية بالتعمير والاغاثة، وصدر قرار بفرض ضرائب جديدة للمساهمة في بناء وتعمير المناطق المنكوبة.

كما سخرت كل الامكانات لاغاثة ومساعدة المتضررين من الزلزال وقدم لهم الغذاء والمال والمساعدات الصحية، والغطاء والملبس والمأوى المؤقت كما قدمت الدولة التعويضات لأسر من توفي أو فقد المتاع الشخصي.

تلك كانت الاستجابة الأولى، ولكن ماذا بعد أن ذهبت السكرة وأتت الفكرة وخفت وطأة المصيبة، وما الآثار الاجتماعية للزلزال على تربية الأطفال.

إذا ما قبلنا تعريف عملية التنشئة الاجتماعية بأنها عملية تربية وعملية تعلم ديناميكية وأنها عملية مستمرة لا تقتصر على طور محدد

س أطوار النمو، وأن عملية التنشئة الاجتماعية تساعد على التكوين الاجتماعي والنفسي للشخصية، وأنها عملية أساسية تهدف الى تغيير السلوك، وأنماط التفكير ودمج عناصر الثقافة الثابتة الراسخة والمتغيرة في الشخصية وربط الشخصية بالبناء الاجتماعي، فان عملية التنشئة الاجتماعية تؤدي الى اكساب الطفل والراشد مجموعة من الاتجاهات والمهارات والمعارف وأشكال الثقافة السائدة والمتغيرة في مواقف التفاعل[1]، واذا كانت البيانات تؤكد أن هناك خسائر مادية وبشرية ترتبت على الزلزال، فان هناك مظاهر واضحة تؤكد أن ثمة تغيرات اجتماعية في المناطق المتضررة من الزلزال بدأت مع مرحلة التعمير واعادة البناء، وأن ثمة مظاهر تؤكد حدوث تغيرات ايجابية نحو مجتمع أفضل، وان هذه التغيرات تعني بداية تقويض ركائز المجتمع التقليدي اليمني وبداية عصر تحديث قطاع من الريف، فقد بدأت التغيرات تطرأ على نمط المسكن وبناء المدرسة، وثمة بوادر واضحة تشهد بأهمية العمل الجماعي المنظم الموجه المستند على خطة علمية.

ومن أهم التغيرات التي تلاحظها العين، والتي لها أثار في المستقبل على الطفل تغيير نمط المسكن، فقد وضح من آثار الزلزال أن المسكن اليمني التقليدي لم يعد صالحاً للمعيشة وقد بدأت عملية اعادة البناء، وأعدت خطة لبناء وانشاء ٢٥،٠٠٠ منزل متهدم،

---

١ ـ محمد سعيد فرح. البناء الاجتماعي والشخصية. الهيئة العامة للكتاب. الاسكندرية: ١٩٨٠م. ص: ٢٥٢ ـ ٢٦٧

وترميم ١٧,٠٠٠ منزل متضرر، وتمت اعادة بناء قرى جديدة في مناطق شرق ذمار وضوران وهجرة منقدة ورصابة وبني شجر، ولكن المسكن الجديد لم يكن على نمط المسكن القديم، فقد تعلم اليمني من تجربة الزلزال ضرورة بناء مسكن معد للحماية من الزلزال، وصممت منازل للمتضررين من ثلاث غرف وحمام ومطبخ، وقد اعتمد تحديد مواقع بناء المواقع الجديدة على أسس محددة هي:

١ ـ أن تكون بعيدة عن الانهيارات الجبلية وسليمة من الناحية الجيولوجية.

٢ ـ أن تكون بعيدة عن تجمعات السيول، وأن تكون جيدة من ناحية تصريف المياه.

٣ ـ الا تبعد المواقع عن أراضي المواطنين ومصادر رزقهم.

٤ ـ أن تكون صالحة للتوسع الرأسي والأفقي

ولقد أعطي اهتمام كبير بالمسكن واعادة بنائه على شكل جديد، بعد أن أثبت درس الزلزال أن نظام البناء في القرية اليمنية ساعد على كثرة عدد المباني المتهدمة، وكثرة عدد الموتى والمصابين، فقد تعود اليمنيون على بناء البيوت المرتفعة في قمم الجبال على تلال صخرية أو بالحجارة التي لم تقطع تقطيعاً منتظما أو باللبن أو الطين[1] وهذه البيوت العالية تتكون من طابق أو طابقين، والمرافق الصحية بهذه المساكن سيئة ويتكون المسكن من عدة أدوار ليتسنى لجميع أفراد

---

١ ـ محمد سعيد العطار التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن.

العائلة السكن فيه ويسمى مسكن عدة أسر داخل منزل واحد (حِلال).

ولذا أدرك اليمني بعد درس الزلزال ضرورة بناء المساكن في مناطق السهول وليس على قمم الجبال، وفي مواقع صالحة للبناء بعيدة عن المخاطر، ولقد تكون الوعي بعد الأزمة والنكبة بضرورة توفير مواصفات جديدة للمسكن الجديد، وتم تصميم الوحدة السكنية هندسياً، بحيث يتوسط بناءها حوش كبير مساحته ١٠ لبنات* وتم تجميع البيوت في مجموعات بحيث يتوسط كل مجموعة حديقة صغيرة للعب الأطفال، وتجاور المساكن مركزاً تجارياً ومركزاً صحياً

واذا كان للمسكن الجديد نتائج ايجابية تعترف بحق الطفل اليمني في الترفيه والراحة واللعب في حديقة صغيرة بجوار سكنه، واذا كان المسكن الجديد ملائماً وسليماً من الناحية الهندسية، فان الممول المشترك في عملية اعادة التعمير بدأ يفرض شروطه، وبنيت قطاعات كبيرة تلاحظ في احداها بصمات المعمار الهولندي، وفي الثانية سمات المعمار الكويتي أو السعودي أو الصيني الخ، ولكن ما خطر ذلك على الطفل؟ في البداية نقول أن القرى المتجاورة بدأت تفقد الطابع المميز للبيئة اليمنية، وأن تعدد أنماط البناء سيؤدي الى نمو الازدواجية عند الطفل، ويعني أخيراً هدم الاصالة اليمنية، وغزو أساليب جديدة تخالف الطابع اليمني التقليدي

---

* اللبنة = ٤٤ م.

ولقد أعطي اهتمام كبير في المناطق السكنية الجديدة للخدمات والطفل اليمني هو المستفيد الأول من ثمار هذه الخدمات، فقد تم بناء مدارس ابتدائية واعدادية جديدة وخطط لبناء ساحات عامة ليمارس فيها الأطفال والشباب نشاطاتهم ومدت المساكن بالكهرباء والمياه والمجاري، وغيرها من الاحتياجات الصحية للتجمعات الحديثة، وحددت أماكن لاقامة حدائق مركزية وبذا تصبح المناطق المتضررة قرى ومدناً نموذجية

ولقد أعطت عملية تغيير شكل الحياة في القرى المنكوبة اهتماماً واضحاً لعملية التعليم، فقد تم بناء مدارس مؤقتة بلغ عددها ٢٦ مدرسة يستفيد منها ١٩,٥٠٠ طفل في المناطق المنكوبة، كما خطط لبناء ٤٤ مدرسة جديدة واقامة مشروعات تعليمية جديدة وتجهيزها بالأجهزة التعليمية الحديثة.

ولم يقتصر الاهتمام بالتعليم على عملية بناء المؤسسة التعليمية، ولكن تعدى الأمر ذلك الى تدعيم كل ما يحقق نجاح العملية التعليمية، ولقد ثبت من الواقع المعاش أن الأسرة اليمنية لا يوجد لها أي اشراف على ابنها ولا تتابع العملية التعليمية في البيت وتعتبر المدرسة هي المسئولة كلية عن عملية تعليم الطفل اليمني[1]، ومن ثم وجدت الضرورة للاهتمام بنظام الريادة في المدارس وتحديد رائد أو مشرف يتولى الاشراف على كل ٣ فصول دراسية، وبذا

---

١ ـ تقرير مرفوع من مدير التعليم في محافظة ذمار الى محافظة ذمار ١٩٨٥م.

أصبح المدرس الجديد يساهم في اعداد الطفل للقيام بواجباته الاجتماعية. وتكون الوعي بأن المدرسة هي الأداة الاجتماعية الحاسمة في تكوين الشخصية الاجتماعية، وتلقين الطفل اليمني المبادىء الاجتماعية، ولكن هل تتحمل المدرسة مسئولية المحافظة على الطابع القومي للشخصية اليمنية؟ ما دام المدرس القائم بعملية التدريس والريادة في الريف اليمني في أغلب الأحوال غير يمني، فثمة شك في تحمل المدرس والمدرسة هذه المسئولية

ولقد صاحب عملية بناء المدارس وعي زائد بأهمية النشاط المدرسي، وأن عملية التعليم ليست مجرد تلقين الطفل الصغير المعلومات والدروس. فقد ظهر الوعي بأهمية الأنشطة الفنية والموسيقية والرياضية لتكوين شخصية اليمني الصغير، الا أن ثمة عائقاً عن تحقيق نتائج ايجابية من خلال النشاط المدرسي مؤاده عدم وجود مدرسين لهذه الأنشطة[1]

كما تكون الوعي بأن عملية بناء المدارس تتم بطريقة عشوائية تحت ضغوط الجمعيات التعاونية ولذا فقد ظهر اتجاه يدعو الى اعادة توزيع المدارس بين القرى توزيعاً عادلا، بما يحقق عائداً أفضل من اقامة مدرسة بلا عدد كاف من التلاميذ، كما تكون الوعي بأهمية توفير المساكن الطلابية لتلاميذ المرحلة الاعدادية في مراكز النواحي وضرورة أن توفر الدولة سبل اعاشة هؤلاء التلاميذ بالاشتراك مع الهيئات التعاونية

---

١ راجع تقرير مكتب التربية والتعليم بمحافظة ذمار ١٩٨٥م.

ولقد أدى درس الزلزال الى الايمان بسلطة المدرسة ولو في طور متأخر من أطوار النمو وأثر السلطة المدرسية في توجيه السلوك وتكوين العناصر الأساسية للشخصية ابتداء من روح النظام الاجتماعي، والتعود على النشاط الجماعي، وقدرة المرء على التحكم في ذاته والارتباط بالحياة الاجتماعية ولكن الهوة بين المدرسة والبيت واسعة وما دامت الأسرة لا تتابع نشاط أولادها في المدرسة فيصبح المدرس - لا الوالدان - هو وسيلة المجتمع اليمني الى توجيه سلوك الطفل وتحديثه وفق مبادىء الدولة العصرية.

ولقد تعدى درس الزلزال الطفل الصغير وامتد الى كل من حرم من التعليم، اذ أعطى اهتماماً لتدريب وتعليم الكبار فقد أعطى اهتماماً لتدريب فريق من العمال المهرة في البناء وتم تدريب ٨١٢ مواطناً في عام ١٩٨٣م تفاوتت أعمارهم كما تمت اقامة مركزين لتدريب وتشغيل العاملين في الوحدات الصحية

وكان لدرس الزلزال آثاره في توجيه الاهتمام بالجانب الصحي للمواطن عامة والطفل اليمني خاصة، فقد صاحب عملية تعمير المناطق المتضررة من الزلزال عملية بناء مراكز صحية وتحسينها وأقيمت مشروعات المياه النقية في القرى المحيطة بالوحدات الصحية، وأقيمت الحمامات العامة، وأعطي اهتمام بتغيير البنية التحتية في المناطق المنكوبة ومدت شبكات المجاري وأقيمت محطات كهرباء فرعية وشبكة لتوزيع الكهرباء لتغطي بعض المناطق ولا يعني دخول الكهرباء القرية اضاءة بعض الحجرات، بقدر ما يعني تغيير

طريقة الحياة في هذه القرى، واذا كان دخول الكهرباء يعني اختفاء الظلام من المسكن فهو يعني أيضاً بداية عصر تنوير عقل الطفل وتغيير طريقة قضاء وقت الفراغ، واتاحة وقت أكبر للاستفادة من الكتاب المدرسي وغير المدرسي، وسماع الراديو ومشاهدة البرامج التلفزيونية وما يترتب على ذلك من آثار اجتماعية ونفسية

كما شقت الطرق الجديدة وفق قواعد هندسية وهذا يعني انتهاء عهد العزلة والوحدة وبداية الانفتاح على الخارج، ويعني هذا كله أن ثمة عمليات تنموية تعتمد على الدولة والتمويل الخارجي[1] بدأت تغير واقع الحياة في القرى اليمنية، واذا كان محمد سعيد العطار قال: ان نمط الحياة في النصف الأول من القرن العشرين لم يتغير عن طابع الحياة القديمة وان نظام السكن في القرية اليمنية يعكس تاريخاً من الفوضى السياسية، فاننا نقول أن الخير للقرى اليمنية المنكوبة قد أتى من ابتلاء الزلزال ورغم ما أنفق من مال كثير في عملية التعمير والانشاء وبناء القرى المتضررة فان العائد الاجتماعي كان أكبر فقد

---

١ ـ ثمة مساعدات كثيرة قدمت لاغاثة وتعمير المناطق المنكوبة، كانت هناك مساعدات عربية شاركت فيها المملكة العربية السعودية ومجلس التعاون الخليجي وقطر وعمان والامارات وجمعية المرأة الظبيانية واللجنة الشعبية الكويتية، وثمة مساعدات قدمتها الحكومات والهيئات الادارية شاركت فيها منظمة أوكسفام البريطانية وحكومة المانيا الاتحادية ووكالة التنمية الأمريكية وحكومات هولندا واليابان والسوق الأوروبية المشتركة ومساهمات دولية قدمتها اليونسيف.

تعلم اليمني من درس المحنة فبدأ بتغيير نمط المسكن. واهتم بالمدرسة باعتبارها نظاماً اجتماعياً يهدف الى التعليم والتدريب، كما اهتم بتغيير البنية التحتية وعني بتغيير العادات الصحية المتوارثة، ويعني ذلك كله تغيير طريقة المعيشة في القرى المنكوبة والنقلة من الحياة التقليدية الى عصر التحديث.

ولكن! هل أدى حادث الزلزال الى تفكك النظام الاجتماعي ومن ثم تشرد بعض الأطفال؟ الجواب بالسلب.

اذا كان من المتوقع أن يؤدي فقد الأهل وهدم المنزل الى تشرد بعض من نجا من الصغار، وهيامهم على وجوههم وانحرافهم كحدث ولكن الحياة الجمعية التي تميز المجتمع الريفي في اليمن تؤكد عكس ذلك، فالناس في الريف عند مواجهتهم للمشكلات أو المواقف الصعبة يلجأون الى الأهل والأقارب لمساعدتهم[1] فالطفل الذي فقد الأب والأم وهدم مسكنه لن يعدم أن يجد من يأويه أو يعوله، فكلهم أقارب له، ينحدرون جميعاً من جد واحد يحملون اسمه[2] ويرتبطون كلهم بعلاقات نسب، فالعلاقات في الريف اليمني تقوم على المشاركة الجماعية والتكافل والتعاون في تحمل المسئوليات

---

١ ـ نورية حمد. التحولات الاجتماعية والاقتصادية. البناء الأسري. مع دراسة مقارنة للبناء الأسري. الريف والحضر اليمني. جامعة عين شمس. رسالة دكتوراة. القاهرة: ١٩٨٥م. ص: ٣٠٢

٢ ـ فضل علي غانم. القبيلة اليمنية والتغير الاجتماعي، رسالة دكتوراة مقدمة الى جامعة عين شمس.

الجماعية تجاه الأقارب حتى الدرجة السادسة[1]، كما أن الملكية في العائلة الريفية جماعية وليست فردية فالأسرة اليمنية كما ظهر من الشواهد تتسم بدرجة عالية من التماسك الأسري، واتساع شبكة العلاقات الأسرية والاعتماد على كبار السن والالتجاء الى الأهل والأقارب وقت الحاجة، فأهل القرية اليمنية كانوا وما زالوا يمثلون العائلة الممتدة، وتعرف العائلة الممتدة عند اليمنيين بالبيت، وكل بيت من هذه البيوت يستقل برقعة جغرافية معينة، محدودة في أرض القبيلة أو القرية كفرع جزئي من القبيلة، وهذه القرية تمثل وحدة قرابية وترتبط بعلاقات اجتماعية مع وحدات قرابية مجاورة، ولقد شكلت هذه العائلة وحدة بمعنى التشابك والمشاركة في جميع الأحداث، ولذا فحدث الزلزال أكد أهمية الحياة الجمعية عند الصغار والشعور بالمسئولية الجماعية والتعاون في كافة الأنشطة في مجالات الحياة اليومية

والتعاون كقيمة اجتماعية ظهر واضحاً جلياً أمام الصغار، فقد ظهر التعاون التلقائي بين سكان القرى التي أضيرت وسكان القرى المجاورة التي لم تحل عليها آثار الزلزال، فهؤلاء سرعان ما هبوا لنجدة المنكوبين، وقدموا لهم الطعام والمساعدات، كما حضر الأهل من القرى المجاورة للاطمئنان على أقاربهم وحملهم مع أمتعتهم الى

---

١ نورية حمد. التحولات الاجتماعية والاقتصادية. البناء الأسري. ص: ٤٠٢

قرى مجاورة لم تُضرَ من آثار الكارثة وتدعم مواقف الزلزال قيم التعاون التي توحد بها الطفل اليمني.

وعقب كارثة الزلزال ارتفعت صيحات عالية في مجتمع تقليدي متماسك تطالب باحداث تغيرات اجتماعية وتغيير أنماط التفكير السائدة، وتدعو الى ضرورة تعلم الانسان اليمني كيفية التعامل مع الحياة والأرض وكيف يواجه النوازل والمصائب، وبدأت الدعوة على المستوى الرسمي بأهمية التخطيط كأسلوب علمي لبناء المجتمع الذي تضرر من الزلزال، وضرورة الاعتماد على الادارة الرشيدة لازالة آثار النكبة، وطالب المفكرون كل على حدة بأهمية احترام الوقت كعنصر هام لتحقيق التقدم، ونادى البعض بضرورة الاستفادة من الكارثة واعتبار حدث الزلزال نقطة الانطلاق الى عصر العلم، وارتفعت أصوات تدعو بحمل الكتاب واحترام العقل ومنجزاته بدلا من حمل السلاح فوق الأكتاف، وضرورة تربية الأجيال الصاعدة وفق قواعد المنطق، وتدريبهم على الاستفادة من العلم والنظر الى ما أنتجه العلم والعصر من مخترعات ومبتكرات ومن أبحاث نظرة جادة وأخذ أمور الحياة بجدية[1] والا نتواكل والا نتساهل والا نلقي كل ما يحدث في المجتمع من مشكلات على شماعة القدر، ونادى أصحاب هذا الاتجاه الجديد بضرورة الاستفادة من

---

١ ـ محمد الشرفا. لتكن هذه الزلازل في العقول والنفوس. مجلة معين. ج. ع. ي. في ١ يناير ١٩٨٣م.

دراسات العلماء والاستعانة بالأجهزة العلمية والتخلص من الخرافات وهدم كل أصنام الفكر والأوثان التي تسيطر على الفكر وتعوق انطلاقه وتقدمه.

وهذه الأفكار التي صدرت عقب تشقق الأرض وتصدع المباني تعكس ارهاصات قيم جديدة نامية ستترك آثارها على الطفل المقيم في المدينة فيما بعد، والبناء الاجتماعي الحضري خاصة فهزة الزلزال أعقبتها هزة البناء الاجتماعي التقليدي، اذا ساد شعور في المدينة بأن الكثير من القيم صارت موضع شك وخاصة بين المثقفين والصفوة، وأصبح الطفل اليمني يسمع من المدرس أفكاراً جديدة ويشاهد في جهاز التلفزة بعض أنماط السلوك التي لم يتعود عليها كما يسمع من المذياع عادات جديدة وعن قيم وأنماط سلوك جديدة وحلول للمشكلات تخالف ما تلقنه له الأم والأب

لقد كشف حادث الزلزال أن أساليب التفكير السائدة والمتوارثة عن المجتمع التقليدي وان الحلول التقليدية والمتوارثة لم تعد صالحة ولا تتناسب مع تجارب الزمن الذي يعيشه اليمني في أواخر القرن العشرين ولا يمكن ان تخلد أنماط التفكير ولا أشكال السلوك المتوارثة عن الأجداد ولقد صدرت دعوات تنادي بضرورة تغيير الواقع مما ينعكس حتمياً على أساليب تربية الأولاد وتنشئتهم، وأن أساليب التنشئة الاجتماعية التي سادت في عهد الامام وتورثها الآباء عن الأجداد لم تعد صالحة لتوجيه سلوك الأحفاد، فلكل جيل من الأجيال أساليبه الخاصة في التنشئة الاجتماعية للصغار وتوجيههم الى المستقبل

والاندماج في عصر العلم والتكنولوجيا، وكان أهم دروس الزلزال أن بعض الآباء وعوا أنهم يعيشون الآن في مجتمع غير مجتمع طفولتهم وأن ثمة قيماً وأنماطاً سلوكية ولدت في المجتمع الذي يعيشون فيه، وأن حلول المشكلات التي تعودوا عليها لم تعد تلائم المجتمع الجديد ولم تعد قادرة على حل مشكلاته فبعض القيم المتوارثة عن الأجداد صارت بالية وتعبر عن مجتمع تقليدي مغلق ولا تحقق للأطفال الاستقرار في مجتمع جديد مفتوح، وبدا واضحاً أن ثمة وعياً بدأ يتكون وخاصة بين الصفوة والمتعلمين يطالب بضرورة تغيير أساليب السلوك التي تلقن للصغار، وتعديل القيم التي تحدد السلوك لكي تتلاءم مع توقعاتهم لمجتمع جديد يعيش فيه الآباء يسود فيه العلم ويرتفع فيه شأن المتعلم، وتدعم وسائل التثقيف والاتصال وهي وسائل موجهة هذا الاتجاه الجديد الناشيء، ومن ثم نقول في النهاية أن أساليب التنشئة الاجتماعية ستتغير لتصاحب التغيرات اللامادية والمادية التي طرأت على المجتمع اليمني، وأن أساليب التنشئة الاجتماعية التي ستسود المدينة ستختلف عن أساليب التنشئة الاجتماعية في الريف اليمني، فاذا كانت صيحة الدعوة الى العلم أفرد لها مكان في المدينة في المقيل وفي الصحافة وفي المدرسة فان ثمة قيماً راسخة تعكس الايمان القوي عند الريفي بحكم القدر والتسليم بأمره فالألسن بعد الكارثة كانت تردد بلا انقطاع وبايمان قوي، «هذا قضاء الله وهذا حكمه» وهذا الايمان القوي ليس وليد الساعة فقد لاحظته الطبيبة الفرنسية كلودي فابان منذ أكثر من ثلاثين سنة، ونوهت به عندما لاحظت أن اسم الله يتردد على كل لسان في كل

مناسبة وفي كل وقت، فالدين هو الدافع الأول وراء كل سلوك اليمنيين وخاصة في الريف وسبب رضاهم الظاهر والكامن وايمانهم العميق يجعلهم يهرعون الى الله قبل كل شيء يحمدونه على السراء والضراء

وثمة دعوة بشر بها بعد الزلزال، تطالب بتنمية الوعي الادخاري عند المواطنين وحثهم على ايداع أموالهم في البنوك وتشجيع مشروع بنوك القرى بدلا من دفن الأموال داخل الوسادة أو وضعها داخل الصوان وضياعها اذا ما انهار المسكن وتلك دعوة جديدة تشجع على الادخار في أوعية ادخارية لم يكن المواطن اليمني منتبهاً اليها.

الذي لا ريب فيه أن درس الزلزال وَعَّى عدداً من الآباء والمسئولين عن التثقيف والاعلام بضرورة تغيير بعض القيم السائدة التي لم تعد صالحة لروح العصر، ومن ثم ضرورة أن يغير الوالدان أساليب تنشئة الصغار لشعور بعض الآباء والأمهات ـ وخاصة من نالوا حظاً من التعليم ـ بعدم الرضا عن أساليب التربية التي تربوا عليها، وادراكهم أن الكثير من القيم والأفكار وأنماط السلوك لم تعد تتلاءم مع روح عصر التكنولوجيا

حقيقة أن عدد هؤلاء الآباء والأمهات والمعلمين والكتاب والمسئولين عن التثقيف والاعلام قليل، ولكن لو رجعنا الى تاريخ اليمن قبل ربع قرن فمن ذا الذي كان يتحدث عن أهمية العلم وضرورة استخدام أساليب التكنولوجيا لحل مشكلات المجتمع،

ويؤكد أهمية التعليم ويطالب بتغيير نظام المسكن، ويسخر من حمل السلاح بدلا من الكتاب، ويسمح للدولة أن تخطط وتنفذ المشروعات في أرض القبيلة، ومن ثم فان عدد الذين يدعون الى قيم جديدة ويطالبون بتغيير نمط الحياة سيتزايد يوماً بعد يوم، بعد أن تتلاءم أساليب التنشئة حسب أشكال السلوك المرغوبة، اذ أن الآباء والأمهات والمعلمين ينشئون الصغار مفترضين توقعات جديدة لمستقبل أولادهم ويدربون الأطفال على أنماط سلوك متوقعة في المستقبل ويدمجون في شخصياتهم قيماً وأفكاراً يفترض أنهم يقتدون بها في المستقبل

وثمة دراسة ميدانية أجريت على بعض الأطفال الذين أضيروا بالزلزال بعد الحادث مباشرة، ونقلوا الى المجتمعات الجديدة في شارح وبني خضير[1] وكان أهم النتائج التي توصل اليها فريق البحث اعتراف أمهات الأطفال بأن جميع الأبناء يعانون من القلق والرعب، وهذا الشعور بالقلق لا يقتصر على الصغار وحدهم، بل حتى الكبار يشعرون بالفزع والخوف والقلق، فهم يخشون امكانية وقوع الزلزال مرة ثانية، ويتزايد هذا الشعور ليلا وترمز أحلامهم الى مظاهر هذا

---

١ ـ قام بهذه الدراسة الميدانية أعضاء فريق البحث ورعاية الأمومة والطفولة السويدية وكتب تقرير باللغة الانجليزية.

لقد اشتملت العينة على ٦٦٠ طفلا من الجيش في تربة شارح، و ٤٩١ طفلا في تربة بني خضير.

القلق، وعند النوم يقترب الأطفال اقتراباً شديداً من الأبوين كما يخاف الكثير من الأطفال الذي عايشوا أهوال الزلزال من ضجة السيارات والرعد.

وقد اهتم البحث بتقصي آثار الزلزال على الأحوال المعيشية للصغار وأسرهم في المناطق المنكوبة وهل ثمة تغير حدث أم لا؟ وقد أجاب ٢٣٪ من الأطفال بالنفي فهم يرون أن أحوالهم المعيشية لم تتبدل وأن كل شيء بقي كما كان من قبل وهم راضون كل الرضا عما وقع، أما الآخرون فقد أجابوا بأن ثمة تغيراً قد حدث ولكنهم اختلفوا في تفسير وتوضيح هذه التغيرات.

فأفراد الفريق الأول يرون أنهم أضيروا من الزلزال بعد أن فقدوا الأهل والمال والمنزل، والفريق الآخر الذي أضير يرى أن أهم أضرار الزلزال نجمت عن الحراك الى اماكن التهجير وتغيير نمط المسكن، فقد استبدلوا بالمسكن القديم سكناً جديداً، مما أدى الى آثار هامة على العلاقات القرابية والتماسك العائلي فلم يعد المسكن الجديد يضم الأجداد والآباء والأبناء، فالمسكن الجديد بني ليضم الأسرة الزوجية وحدها وفقد المسكن الجديد الكثير من الخصائص الجمعية التي تميز بها المسكن القديم.

ولقد أثر المسكن الجديد على الحياة الأسرية التقليدية فأمور البيت لم تعد تحتاج الى أيدي عدد كبير من النساء، بعد أن أصبح عمل المرأة قليلا، كما قلت سيطرة الحماة على زوجة الابن، فلم يعد هناك من يقول «اعملي هذا ودعي ذاك» كما قلت المشاجرات التقليدية

بين الأولاد أثناء اللعب أمام المنزل، أو توزيع الطعام، فلم يعد الأطفال يختلفون ويتخاصمون بسبب التنافس في اللعب أو الغيرة.

ولقد تضمن البحث سؤالا عن المكان الذي كان فيه الأطفال وقت وقوع الزلزال، وكما وجدت بالمشاهدة والمعايشة فالطفل قوة منتجة وليس عبئاً اقتصاديا على أسرته فالابن يحل محل الأب الغائب دائماً عن أسرته فالأب اليمني اما مغترب في السعودية أو في دول الخليج ابتداء من السبعينيات ـ بعد أن تغير اتجاه الهجرة من الدول الافريقية والأوروبية ـ سعياً وراء الرزق، وإما مهاجر الى إحدى المدن اليمنية ليعمل وليحصل على الأجر، فالكثير من الأطفال يتعلمون ويعملون فهم يعملون بعد العودة من المدرسة فترة تتراوح ما بين ٤ ـ ٦ ساعات في أعمال الزراعة والتجارة أو البيت، ولقد كان بعض الأطفال في المدرسة أثناء حدوث الزلزال والبعض في البيت ينظفونه ويرتبونه والبعض يحضر المياه من البئر، والبعض يعمل في الأرض الزراعية

أما عن تصرفات وأفعال الأطفال بعد الزلزال فقد تضمن البحث سؤالا الى الصبية: ماذا تتذكر من أحداث بعد وقوع الزلزال؟

ولقد أجاب الصغار على هذا السؤال اجابات متنوعة:

ـ «كنت في المدرسة، عدت الى البيت، لم أجده، ذهبت الى الحقل لم أجد أبي، فقد كان يبحث عني، وأخيراً وجدت أبي».

ـ «حصلنا على خيمة وأتت الطائرات بالطعام، وحمل الجرحى الى المستشفى».

- «لا أريد أن أتذكر ما حدث في ذلك اليوم»

- «في البداية شعرت بهزة بسيطة ثم بدأنا في تلاوة القرآن وعندما حدثت الهزة العنيفة هربنا من المدرسة الى الحقول، وفجأة انهارت المدرسة كلها لم يصب الا تلميذ واحد فقد ساقه»

- «كان الناس يصيحون عند اخراج المصابين من تحت الأحجار، وكانت الأحجار والصخور تتساقط باستمرار، فقد عجز الكثيرون عن الخروج من تحت الأحجار».

- «هدمت قريتنا كلها، وبقيت الأسر بلا مأوى لمدة عشرة أيام ثم حصلنا على خيمة».

- «فجأة سقطت الأحجار فوقنا، واختفى كل شيء، ولم تستطع أمي رؤيتي، فقد كان كل شيء فوقي، ولقد خرجت من تحت الأنقاض لا أعرف كيف».

- «كان الناس يتصايحون أخرج أخرج بقيت أمي في الداخل تحاول مساعدة أختي على الخروج سقط بعض الاخوة من الاعياء والتعب وبعد يومين من الزلزال خرجت من أسرى بعضنا أصيب في رأسه أو جسده ونقل الى المستشفى واستمر بها ثلاثة شهور».

- «انهدم المنزل فوق رأسي وعلى اخوتي وأخواتي، كان أحد اخوتي رضيعاً في البداية لم تعثر عليه أمي قالت الجدة لا تحزني لديك عدد كبير من الأولاد وأخيراً وجدوه مصاباً بجرح نافذ، حمل أخي الى المستشفى ولكنه مات هناك وعم الحزن علينا».

- «كانت الأرض تتحرك من تحتي حاولت أن أذهب الى منزل خالتي، سقطت الأحجار على رؤوسنا أصيب بعض الأطفال، نقلت

الى مستشفى ذمار، بقيت هناك ثلاثة أيام ثم حملت الى مستشفى صنعاء».

ـ «كنت العب في الخارج بجوار البيت، شاهدت أختي الكبرى تجري سقطت عليها حجرة كبيرة فماتت في الحال».

ـ «شهدت دوياً، قال الكبار أن الحرب قد اندلعت»

ـ «عندما كنت في الحقل، شاهدت كارثة انهيار البيت وقتل الجدة تحت الأنقاض، بقيت أمي حية تحت الصخور والأحجار مغشياً عليها لمدة ساعات أصيبت بجرح نافذ وأصبحت صاحبة عاهة منذ ذلك اليوم».

ـ «كنت في الخارج أغسل الملابس، وفجأة شعرت بهزة الأرض عدت الى البيت فوجدت أخي ميتاً حملته الى الخارج فوق كتفيّ كنت أبكي وأصيح طوال الوقت، وكانت أمي مشغولة برفع أبي س تحت الأنقاض»

ـ «كان كل مس في القرية حزيناً، ويصيح. فالجميع أضيروا سن الزلزال فهناك الحزين على موت الأهل والأصحاب والحزين على ماله والمغتم على المنزل الذي انهار».

ولقد قدم الأطفال لهيئة البحث معلومات تفصيلية ومحددة عما حدث يوم الزلزال وكانت اجابات الصغار معبرة عن قدرة واضحة عما يختلج في النفوس س مشاعر وأفكار، ولقد قدم الأطفال أفكاراً متباينة عن أسباب الزلزال، وكانت الاجابة الشائعة والمتكررة: كان الزلزال «عقاباً الهياً»، لأن الناس تركوا الصلاة والعبادات كما اعتقد

بعض الأطفال أنهم ردوا الى يوم القيامة في ذلك اليوم الحزين، ويكشف هذا التفسير عن قوة الشعور الديني عند الصغار وقد حصل الباحثون أثناء المقابلة مع الصغار على اجابات متنوعة عن تفسير الصغار لأسباب الزلزال:

ـ «اعتقد أحدهم أن سبب الزلزال نشوب الحرب، وأن أحد أطرافها الحكومة والطرف الآخر اليهود».

ـ «أفاد بعض الصغار أنهم يعيشون حالة خوف من حدوث الزلزال مرة أخرى، وثمة كابوس يجسم على صدورهم، وتصور أحلامهم الكثير مما حدث في تلك الساعة المشئومة فالصغار كلهم أجابوا انهم يخافون وقوع زلزال جديد يقتل فيه الأقارب والأهل ويهلك الحرث وتهدم البيوت ويخرجون الى التيه مرة ثانية».

ـ «أفادت قلة من الصغار أنها ترفض الحديث عن الزلزال فهم لا يعتقدون بتكرار الزلزال».

ولكن هل ثمة تغير في الأحوال المعيشية للصغار بعد وقوع الزلزال؟ انقسم المجيبون الى فريقين: الفريق الأول: يرى أن ثمة تغيرات الى الأحسن طرأت بعد الزلزال. والفريق الثاني: يرى أن الحياة الجديدة ليست بأحسن مما كان عليه الحال قبل الزلزال.

وقد أجاب الفريق الأول الذي يرى أن ثمة تغيرات الى الأحسن حدثت في القرية الاجابات الآتية:

ـ «الحياة الأسرية الآن أحسن، لقد بنيت المساكن الجديدة بطريقة آمنة»

ـ «الحياة في القرية الجديدة أحسن، والمدرسة الجديدة أفضل، لدينا الآن كل شيء».

ـ «الطعام الآن أفضل مما كنا نأكل، فنحن الآن نأكل الأرز والخضروات والفاكهة».

أما الفريق الثاني: الذي لا يرى الا الوجه القبيح للزلزال فتنحصر انتقاداته في الاجابات الآتية:

ـ «نعيش الآن في مأوى مؤقت بعد ما انهدم المسكن».

ـ «الحياة من قبل كانت أفضل، كنا نعيش سوياً متقاربين وكان الناس يساعدون بعضهم البعض ولكننا الآن نعيش في عزلة عن الأهل».

ـ «الحياة من قبل كانت أفضل، والمساكن كانت أحسن وأكثر اتساعاً ولكننا فقدنا البيت والأهل ونعيش ليلا في الظلام».

ـ «نعيش الآن في رعب وخوف من تكرار ما حدث، وهل يتكرر وقوع الزلزال بعد بناء واصلاح البيوت، كلنا نفكر في الزلزال والخوف من وقوعه مرة أخرى».

ـ «كان كل شيء من قبل أفضل، لم نعرف منذ ولدنا الزلزال أما الآن فنحن نعيش في رعب من حدوث الزلزال مرة أخرى».

ـ «من قبل كنا أكثر راحة وسعادة، كل شيء ينذر الآن بالكارثة».

ـ «كنا نملك بيتاً وأصبحنا نعيش في خيمة كان كل شيء سعيداً وبهيجاً، تعودنا زيارات الناس الآن نعيش في عزلة».

ـ «ان لم تهدم القرية لكانت المعيشة فيها أفضل، فكرة زيارة القرية القديمة تذكرنا بالكارثة والفاجعة».

ـ «كنا بالقرب من آبار المياه كان لدينا المياه والكهرباء الآن نعيش بلا ماء أو كهرباء».

ـ «كان كل سكان القرية من الأهل والأقارب والأصدقاء يعيشون متجاورين، الآن لا نعرف من يجاورونا ولا هم يعرفوننا».

وهكذا يدرك الأطفال الذين أضيروا من الزلزال أن ثمة تغيرات اجتماعية طرأت على الحياة الاجتماعية وأهم تلك التغيرات الاجتماعية تلك التي أصابت التماسك الأسري فقد كان من السهل قبل الزلزال الحصول على مساعدة الأقارب وتبادل الزيارات مع الأهل الذين تفرقوا وتباعدوا

ولقد كانت التغيرات التي حدثت بعد الزلزال عديدة وأهمها بناء المدارس وتوفر الطعام وتحسن مستوى الخدمات الصحية واتاحة فرص اللعب للصغار

وثمة تغيرات يمكن ملاحظتها بعد الزلزال أهمها:

١ ـ تشتت الأهل والأقارب وبدء ضمور العلاقات القرابية التقليدية والتحول من الحياة الجمعية والعائلية الممتدة الى الأسرة الزواجية وما يصاحبها من نمو الفردية

٢ ـ استخدام التكنولوجيا الحديثة أثناء تعمير القرى الجديدة.

٣ ـ الاهتمام بتحسين الخدمات التعليمية والصحية

واذا ما قارنا اجابات الأطفال عن أحوال المعيشة قبل الزلزال وبعده نجد أن الحياة لها أكثر من معنى عندهم فالبعض يرى أن الحياة قبل الزلزال أفضل والبعض الآخر يرى أن الحياة بعد الزلزال أفضل، ولقد أجاب الأطفال الذين نقلوا الى أماكن التهجير أن حياة المأوى تعني عند الأطفال الظلام والملل والانتظار والسكون وخاصة بعد الغروب، ولا جدال ان المعيشة في مدن الخيام أحدثت شرخاً في البناء النفسي لكثير من الأطفال.

وثمة نتيجة مهمة توصل اليها البحث مؤداها أن العناية الوالدية والعلاقات العاطفية الوثيقة بين الأقارب والتماسك الاجتماعي القوي بين أهل القرية، كلها أسباب أساسية وراء عدم شعور الصغار بالاضطرابات النفسية وعدم تشردهم.

وفي نهاية هذا البحث نقول أنه اذا كانت النتائج السلبية الظاهرة للزلزال تكاد تكون قليلة وأن النتائج الايجابية الواضحة للزلزال أكثر من غيرها، فثمة نتائج سلبية وايجابية للزلزال ما زالت مطمورة ولم تظهر بعد في المجتمعات الجديدة.

المراجـــع

١ ـ الأعمار. الجمهورية العربية اليمنية المجلس الأعلى لاعادة تعمير المناطق المتضررة من الزلازل.

٢ ـ البناء الاجتماعي والشخصية محمد سعيد فرح. الهيئة المصرية العامة للكتاب الاسكندرية: ١٩٨٠م

٣ ـ التحولات الاجتماعية والاقتصادية البناء الأسري. نورية أحمد. رسالة دكتوراه من جامعة عين شمس القاهرة: ١٩٨٥م.

٤ ـ التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن. محمد سعيد العطار

٥ ـ زلزال ذمار الواقع الأليم والدرس المستفاد. محمد سعيد فرح. مجلة معين.مؤسسة سبأ العدد ٢٨ صنعاء: ١٩٨٣/١/١م.

٦ ـ القبيلة اليمنية والتغير الاجتماعي فضل علي غانم. رسالة دكتوراه مقدمة الى جامعة عين شمس.

٧ ـ لتكن هذه الزلازل في العقول والنفوس. محمد الشرفا. مجلة معين. الجمهورية العربية اليمنية أول يناير ١٩٨٣م.